ما يجب أن يُعرَف..

ما لا يجب أن يتمّ

لو كنت مسؤولاً عن تعليم أجيالنا: (من هي، وما هي، هذه الـ "إسرائيل") لقررت أن يُدرّس في مناهجنا كتاب البروفيسور إسرائيل شاحاك: "الديانة اليهودية.. التاريخ اليهودي. وطأة ٣٠٠٠ عام" ليس في المرحلة الجامعية وحسب بل في المدارس الثانوية وحتى الإعدادية.

وإسرائيل شاحاك كان أستاذاً للعلوم الطبيعية في "الجامعة العبرية"، وهو الآن متقاعد، ولكن الرجل يمتلك من الجرأة والمصداقية مع نفسه ومع الحقيقة ما جعله يفضح، دون مواربة طبيعة ما صار يسمى "المجتمع الإسرائيلي" وحقيقة المعتقدات اليهودية والسلوك اليهودي "الأرثوذكسي" المقيد تقييداً تاماً بفهم الحاخامات للتعاليم التلمودية. إنه يكشف بمنتهى الصدق، عن الفظاظة الوحشية التي يتعامل بها اليهودي مع الآخرين من (الغوييم= الأقوام الأخرى من غير اليهود) وبموجب التعاليم التلمودية التي يحرص الحاخامات على إلزام المتدينين بها إلزاماً صارماً وحرفياً. وبالطبع، قلة قليلة لا تُخضع نفسها لذلك الإلزام فاليهودي لا يكون يهودياً إلا إذا قام بشعائر دينه ونفذ ما يأمره الحاخامات بتنفيذه!.

والبروفيسور شاحاك يشير إلى أن تلك القلة لا تأثير لها على

الحياة المجتمعية أو السياسية في "الدولة العبرية".. بل أكثر من ذلك. هو يؤكد أن الديانة اليهودية ليست ديانة توحيدية، ويستشهد على ذلك بنصوص توراتية وتلمودية لا مجال لدحضها. إن تشريح السلوكية الدينية، أي السلوكية المأمور بها نصياً في كتب اليهود المقدسة، والتي هي ما تميز بين اليهودي الحقيقي وبين غيره، حتى لو كان مولوداً لأبوين يهوديين، والتي هي سلوكية الأكثرية في ما صار يسمى "المجتمع الإسرائيلي"، وشرط أساسي ليكون المرء هناك من أفراد النخب الحاكمة على اختلاف تسمياتها.. ذاك التشريح يؤكد أن "اليهودية" هي دين، بصرف النظر عن طبيعته وتعاليمه، وليست ديناً وقومية في آن معاً، حسبما يدعي السيد نتنياهو في كتابه (مكان تحت الشمس) زاعماً أن قصر اليهودية على كونها ديناً فقط هو مجرد "اختراع عربي!!" وفقاً لادعاءاته.

وفي الواقع، يسقط البروفيسور شاحاك، بتحليلاته تلك في كتابه، المذكور أعلاه، جملة من الأسس الأيديولوجية للصهيونية إسقاطاً لا هوادة فيه ولا تردد، مثلما يدحض، دون أن يشير إلى ذلك، زيف الادعاءات التي يروجها كبار الصهاينة والمتصهينين منذ ما قبل هرتزل وحتى الآن.

ولو كنت مسؤولاً عن تعليم أجيالنا: (ما هو هذا الغرب الذي أوصلنا أخيراً إلى ما وصلنا إليه؟ وكيف؟) لقررت أن يدرس في مناهجنا الجامعية كتاب البروفسور الباحث إدوارد سعيد: (الاستشراق) كمادة أساسية في مختلف الكليات الجامعية على اختلافها.

إن كتاب الاستشراق يقدم للقارئ تشريحاً تحليلياً واسع

الطيف لتلك الصورة التي كوّنها الغرب عن ذاته، ولكن عبر رؤيته لنا كصورة مضادة، بشكل أساسي، وسلبية إلغائية في عمقها وجوهرها وغايتها.

ويتناول البروفيسور سعيد أوليات الملامح التكوينية للصورتين المذكورتين وتطوراتها نحو الاكتمال عبر بضعة قرون.. ففيما كان الغرب ينتج فلسفته وآدابه ورؤياته الفكرية والفنية والأدبية، أو بالأحرى يبني تمركزه على ذاته في (نظرية المركزية الأوروبية) حيث يعتبر نفسه محور العالم، أو إنه العالم كله بعد إلغاء (الآخر) تصورياً ومفهومياً- أو على حد تعبير توينبي، كل ما ليس أوروبياً يظل "خارج التاريخ" حتى تتم إعادة إنتاجه بنيوياً: في الفكر والاقتصاد والسياسة والأدب والفن والفلسفة والقانون، بما يتلاءم مع صورة أوروبا عن ذاتها- وفيما كان الأوروبيون ينتجون صورة أوروبا الجديدة منذ بدايات عصر النهضة، متبنّين ثقافة اليونان والنزعة العسكريتارية الرومانية باعتبار ذلك -حسب رأيهم- ميراثهم الخاص المعجز المتفرد، وخلاصة إبداع (العرق الآري) الذي اخترعوه (اختراعاً صافياً)- كما يقول المفكر الفرنسي بيير روسي- وجعلوه العرق الوحيد المبدع... فإنهم كانوا ينتجون "للشرق" صورة نقيضة، صورة الانتماء إلى (عرق!!) مخترَع هو الآخر سموه (العرق السامي، نسبة إلى الشخصية التوراتية الأسطورية: سام بن نوح)، وجعلوا هذا العرق عاجزاً عن أي إبداع وعن أي إنتاج حضاري ذي قيمة. وبالطبع، كان الشرق يعني لدى الأوروبيين بدئياً: الوطن العربي، ثم العالم الإسلامي... ولاحقاً توسع المفهوم ليضم بقية الشعوب والحضارات والأديان.

إن صورة العجز الشرقي هي -حسب الأوروبيين- الضرورة

المؤكدة لصورة التفوق الغربي. وعملية إنتاج هذه الصورة وتعميمها بمختلف الأدوات والوسائل هي ما يسميه إدوارد سعيد (شرقنة الشرق). وبالطبع، على "الشرقيين" أن يعتقدوا أنهم فعلاً كذلك، وأن يتمثلوا عناصر صورتهم المشرقنة ومقوماتها المفهومية ويعيدوا إنتاج حياتهم وفقها مطورين إنتاج الصورة نفسها في الوقت ذاته.

ولم تكن "مؤسسة الاستشراق" مؤسسة أكاديمية أو سياسية محددة الهيكلية والتنظيم والأداء، بل كانت نوعاً من قوة الفعل الثقافي المنتشر في الأجهزة الثقافية الغربية، وهي قوة توظف نتاجاتها سياسياً وحضارياً وحتى عسكرياً بشكل متسق ودائم.

وفي حدود منتصف القرن العشرين بدأ الميل لتغيير آلية الأداء بالنسبة لتلك المؤسسة ولتغيير عناصر الفعل الخاص بها.. وهكذا أنتجت عملية "الغربنة" التي يقوم بها أبناء الشرق أنفسهم من المثقفين المختارين لأداء الوظيفة التي كان يقوم بها الأوروبيون.

ولا يمكن بالتأكيد أن يعرض المرء هنا لكل ما هو واجب العرض في كتاب إدوارد سعيد، وما أكثره!... غير أن الكتاب برمته لا يسلط الضوء على الابتزاز المعرفي الأوروبي وغير المعرفي لنا، بل هو يرينا صورة أنفسنا ونحن نساعد على هذا الابتزاز دون أن ندري.

إنه يفتح أعيننا على العيوب الفادحة والثغرات الخطيرة في أدائنا الحياتي العام داخل إطار الهيمنة الإمبريالية القائمة. ومن هنا تنبع الأهمية البالغة لهذا الكتاب ومحتوياته بالنسبة لنا.

وتبدو الصهيونية التي يفضح شاحاك طبيعتها وزيف

إدعاءاتها الأيديولوجية الدينية والدنيوية جزءاً متكاملاً في فعاليته المضادة لنا مع صورة ونهج (التمركز الأوروبي) وصورة الشرقنة حسبما يرصدها البروفيسور إدوارد سعيد.. والواقع إنهما كذلك، ليس ضدنا وحدنا كعرب بل ضد العالم ككل، وليس في فعلهما السياسي /الاقتصادي/ الثقافي وحده، بل حتى في ما يخص الوجود البيولوجي لبقية البشر. والمنطق والغاية بالنسبة للصهيونية المتأسسة على الأفكار التلمودية وبالنسبة للتمركز الغربي على الذات هما المنطلق والغاية. أي "تدمير الآخر كي أبقى أنا!!".

وفي العقد الأخير حيث ظهرت أفكار فوكوياما عن (نهاية التاريخ) وأفكار هنتنغتون عن (صراع الحضارات)، وصارت العولمة "مشروع الإمبريالية المستقبلي"، صار واضحاً بما لا يقبل الشك أو الجدل، أن تدمير بقية العالم هو حسب منطق العولمة وأفق تحققها المحتمل، أمر ضروري لانتصار الغرب، حيث يقول صاحبا كتاب (فخ العولمة) أن ٢٠% من سكان الكرة الأرضية هم وحدهم من سيكون بإمكانهم أن يستمروا في العيش في حدود منتصف القرن المقبل. أما فكرة (تدمير الآخر) بالنسبة للصهيونية فهي فكرة مركزية في الجهاز المفاهيمي الصهيوني التلمودي.

ويبدو الأمر الآن كما لو أن الغرب قد احتوى العالم بعد شرقنته ولم يبق أمامه سوى تدميره كي يبلغ (مرض التمركز، أو نزعة المركزية) غايته الحتمية. وبالطبع، لو كان اليهود التلموديون يملكون القوة البشرية لذلك التدمير لنفذوه منذ دهر بعيد. إن الصهيونيين والإمبرياليين يتعاونون الآن على تدمير (الآخر)... ولكن، من منهما في النهاية سيدمر الآخر؟! أم أن

الشعوب المطلوب تدميرها ستتمكن من الإمساك بزمام المبـــادرة لإنقاذ الحضارة من هذا "العصاب" الذي ربما قد تحول- أو إنـــه يتحول- بسرعة مذهلة إلى جنون؟!.

❑❑